[قصة]

هذا أخي

أقله القطار إلى القاهرة ، وكان قد عيّ بالنظر إلى ما ينشر تحت بصره من ألوان لا تمايز ، فهذه أرض اخضرت بالنبت ، وتلك بقرات عجاف وسمان افترشت الغبراء تلعب أفواهها على اجترار ، وهؤلاء جماعات من الرجال والصبيان في أسمال قد أووا الى ظلال الأشجار على مقربة من سواقيهم يصيبون حظاً من طعام وآخر من راحة .

فألقى برأسه الى متكأ لين ، يجده الراكب في الدرجة الأولى أو الثانية خلف ظهره ، وشخص ببصره الى سماء العربة ، ولم يكن الى جانبه أحد يشغله أو يشغل به ، ففزع الى أفكاره يأنس بها ، ومرت الذكريات تباعاً ، وقد وجم لها بادي الرأي واستوحش ، ثم بشّ وهشّ ، وهجس به هاجس من شر فانتزع رأسه من مقره ، وعاد يلهو بالنظر الى فضاء الله وما ضمّ .

والقطار سريع الخطو ، يسعى بما فوق ظهره في مساربه ومسالكه ليبلغ مبلغه فيريح ويراح ، يتلبث حيناً ببعض المدن يأخذ منها ويعطي . والفتى لاهٍ بهذا مشغول به . وكأن الوحدة في منزله أوحشت نفسه فنشد الأنس في تلك الجموع على أرصفة المحطات مصعدين منحدرين . وفيما هو منقلب الى مكانه بعد وقفة إلى النافذة رأى قبالته عذراء يكاد يجمعه وإياها العمر ، أما هو فهو ابن العشرين والسبع ، وأما هي فرد ذلك إليها ، وستعلم نبأه بعد حين .

ويدهشك أن يكون هذا جائل خاطره حين رآها لقد اطمأن الفتى للفتاة حين وجدها الى جانبه ، وشغفه مرآها ولما يستقر به المقام ، ولكن الفتاة بدت غير فتية ، متشحة في غير وشاح الشباب ، وخاف الفتى فاصلة السن أن تفرق ، فكان هذا أول ما شغل باله . فسكنت إليه نفسه حين بدا له من أمرها ما قدر ، وزاد من سكون نفسه أن رأى الأصابع عاطلة .

جلس الفتى ، وقد ملأ الله عليه فضاءين ، فضاء المكان وفضاء النفس وكان وسيماً على الرغم مما غيّر منه السفر ، حالياً بما يفقده الكثير من الفتيان . وكان الليل قد أظلّ الكون بجناحيه ، وأضاء لهما المصباح المركوز في عل تلك الأشبار التي اتسعت لهما من العربة .

ومرت دقائق صامتة إلا من وجبات اضطرب بها قلب الفتى ، فحرك لها قدميه يضرب بهما الارض في رفق يستر ماوهم أنه مسوح مفضوح . وأحست الفتاة ظاهره وكشفت من باطنه، ولم تكن ذات قلب أغلف فتحركت للقول حين بصرت به غير شجاع ولا مقدام .

فسرا في حديث طيب محمود ، عرف الفتى بعده أن الفتاة تمتهن التعليم في مدارس القاهرة ، وأنها قاصدة إليها بدء العام . وعرفت الفتاة أن الفتى مهندس عائد من السودان ، بعد أن شارك في عمل قضى من أجله هناك سنين ثلاث أو تزيد قليلاً . وافترقا حين بلغا القاهرة بعد أن عرف كل منهما أين يقيم الآخر .

٥

شبت سعاد حين شبت على هوى لم تعرف كيف تدفعه ، ولم تملك لزمام أمرها مقاداً . وكانت ذات حظ من جمال وآخر من مال . ولكنها لم تملك الى هذين عقل الفتاة الركينة الركنة . فشبت الهوى تسلياً ، والحب تفريطاً . فأعطت لفتى هواها وحبها ما أراد ، وعادت هي منه بملء البطن . واختفى الحب المغرر ، وكان من النازحين الى القاهرة للراحة واللهو ، وكما ضلت سعاد الغادة ضلت عن أن تعرف عنه شيئاً ، غير أنه جار وأنه ذو يسار وأنه محب إليها ، ثم هو كما أفضى إليها عند أول لقاء كان على أن يكون زوجاً بعد حين .

وخشيت الفتاة على نفسها العطب ، وعلمت الأم حين بصرت بالحزن يدب في جسم ابنتها ، والذبول يطوي نضرتها ، وخافت أن تفقد وحيدتها بين عشية وضحاها . فنسيت خطباً يخطب ورحلت بابنتها الى تركيا حيث مهد أبيها وحده . فقضت هناك عاماً وبعض عام وعادوا من هناك ثلاثة : الأم والفتاة وهذا الصغير الذي مد الله في أجله وأصبح بعد مهندساً ، وقد ودعناه منذ قليل على محط القاهرة في أوبته من السودان .

٥

ونزح حسين من القاهرة وعاد إليها ، وانتهى إليه خبر الفتاة التي أحلت إليه وأسلمهو إليها فأحمه ، وجهد أن ينسى فلم يفلح . وقد هم أن يخطو الى ذلك البيت خطوة شريفة لكنه أعجله البرق برسالة داعية . فخف الى الصعيد . وهناك وجد عماً يحتضر ، وفتاة تتشوف إليها الجيوب قبل العيون ، لأنها خالفته على ماله ، ووجد العقد ينقصه أن يذيله بإسمه ، ففعل .

وشغلت القرية الزوج فأخلد الى المقام فيها ولكن ذلك لم يحل بينه وبين أن يلم بالقاهرة كلما ذكر حاجة له بها ، وهو حين يلم يذكر أن له فيها زوجاً وابناً لا يعرفان من أمره شيئاً .

•

لقن الفتى المهندس عن أمه أن أباه مات عنه وهو في بطنها ، فكان يحزنه ذلك ويهم نفسه ، ثم يعرف لأمه بعد جدته برها به وحدبهما عليه فيحجب هذا حزنه على أبيه بعض الشيء .

هذا وذاك ما جال بخاطر الفتى وهو في أيبته من السودان . وقد عرفت الآن ما أهمه فأوحشه ، ثم ما راح له فهش وبش . ولكن شيئاً لم يمسك نبؤه . هو ذلك الهاجس الذي فزع الفتى فقفز معه من مكانه الى النافذة .

عاد المهندس من السودان يحمل رجاء ورجاء . أما أولهما فذلك التوفيق الذي هيء له ، فهو يرجو بعده فتحاً ونصراً ، وأما ثانيهما فتلك الفتاة التي لقيها في القطار فرجا أن تكون له زوجاً .

وقد خف الى حيث أمه ، وهو مزمع أن يفجأها ببشرى حضوره سالماً ، وأن يحدثها حديث توفيقه وما عزم .

ولم يكد يودع فتاته حتى استقل سيارة أخذت طريقها الى الجيزة حيث يقوم بيت ، هو كالقصر الصغير تحيط به حديقة جميلة تخذتها الأم ملهاها فشغلت بأمرها مع البستاني تشير عليه فيعمل . وعرف الناس لها هذا الذوق فحمدوه لها وشكروها عليه . وزار الكثيرون منهم الحديقة ينقلون عنها ويحكون صورها .

•

وصل الفتى الى البيت مع الصبح فأنكره ، رأى الحديقة غير الحديقة ورأى المتسلقات أمواتاً يابسة والشجيرات قد امتدت غصانها في غير وجهة . فولج يدخل فرأى أرضاً سوداء لا تمسك غير تلك الشجيرات المشعثة .

هنا ذكر ذلك الهاجس فوجب له قلبه ، وضاق به صدره فخطا خطوات . فإذا خادم عجوز ما رأته حتى دمعت عيناها وما هم أن يسألها حتى وجد الجدة تشرف عليه من مخدعها وهي لا تقوى على القول . فاغرورقت عيناه بالدمع وما يعلم ، وسمع من نشيجه نشيج ونشيج أفاق الفتى بعده وقد علم كل شيء ، علم ان الام ودعت منذ أشهر أشوق ما تكون إليه ،

وان الجدة ضلت لبّها فلم تملك أن توصل اليه . وأن ذوي قرباه لم يروا أن يزعجوه بعد أن علموا أن أوبته قريبة .

*

ومضت أشهر والفتى في شغل عن الفتاة لا تعلم من أمره شيئاً فعدته كالفتيان لا يحلم حتى يودع ، فحاولت أن تنساه ولكنها لم تقو ، وكانت آلت على نفسها ألاّ تكون سباقة الى الاتصال به والسؤال عنه . وذلك شأن النساء معهود غير أنها حين طالت غيبته خرجت عن معهودها وسعت اليه سائلة عنه .

وقد عنّ لها أن تلقاه حيث يعمل . فمضى الحاجب بين يديها الى غرفته يراها إحدى قريباته . وهناك الى مكتب انتثرت في صفحته أوراق وجدت فتاها مقبلاً على ورقة بين يديه يجري بين أسطرها قلمه غير متلبث . وبينا هو يرفع رأسه يملأ عينيه من جمال زهرة أودعها وامية زجاجية أمامه رأى فتاته وما كان أحس بها حين خطت اليه .

فنهض اليها ووصلت هي سعيها اليه فالتقيا غير بعيد من مقعده . ورمت ببصرها فرأته خطاباً ما كان يكتبه . فازدحم رأسها بالبلابل . وامتدت يدها غير مريدة الى الخطاب وأمكنت عينيها من أسطره . فاذا اسمها أول كلمة فيه ، واذا المكتوب لها ، فيه العذر وما كان كتب غيره .

وكما أسرعت الفتاة الى اختطاف المكتوب أسرعت الى رده . والتفتت الى الفتى فرأته واجماً حزيناً ، ورأت دموعه تسيل ، ثم سمعته يبكي فأسعدته ما وسعها أن تسعده . فأخذ الفتى بعد حين يحدثها حديثه في نبرات حزينة ، وما أن جره القول الى الحديقة حتى قام الى الزهرة فانتزعها من وعائها وأكب عليها يلثمها في حرارة ، فيها تمثلت أمه وفيها عاشت منسية .

*

وجرت الأيام تؤلف بين القلبين وتوفق بين الفؤادين وأنس كل واحد منهما بصاحبه أنساً لا نصفه ، وحملا في قلبيهما شيئاً أغلى من الهوى وأجل . فقد حرص على أن يخلو اليها ، كما حرصت هي على أن تخلو اليه يعمران هذه الخلوة بسمر عجب الى قلبيهما بريء . الفتى يريدها الى جنبه ، والفتاة تريده الى جنبها وما بهما ملل ولا سأم ، ولكنه مطعوم له حلاوته على كل حاسة والقلب باللقاء سعيد .

وسعت الفتاة مع الفتى الى قبر أمه مع الجمع في الصباح يجلسان اليه ساعة من نهار ثم يعودان ، كما سعت معه الى بيت جدته تعني معه ببعض شأنها . ولم يبق إلاّ أن يضم الفتى اليه فتاته في بيته ضمّاً رابطته الزواج .

وغاب «حسين» عن القاهرة غيبة طالت . وما يجب أن نذكرك به في الحديث عنه بعيد ، ثم ألمّ بالقاهرة زائراً . ويعنيني أن أسر إليك أنه وفد الى القاهرة هذه المرة لا لشأن من تلك الشئون التي تتصل بعمله . ولكنه رأى رؤيا أزعجته تتصل بماضيه مع الفتاة التي نكبها ، وأحس واخذاً من ألم يكاد يصمي قلبه ، ووجد حادياً يحدوه الى القاهرة يجري في إثره اليها . وما أن وطئتها قدماه حتى وجد باعثاً من شوق ينهض به الى تعرّف أمر فتاة أمسه . فنهض ولم يمض غير بعيد حتى عاد يعلم ما لم يكن يعلم ، ولكنه يعلم أمه وحزنه ، فقبع في البيت لا يخرج . وكان اليوم خميساً تتلوه جمعة .

فنهض مع الغد مبكراً ونهضت معه ابنته . وخرجت هي لشأن ظنه يتصل بعملها في القاهرة ، وخرج هو لشأن ظنته يتصل بأرضه وتجارته .

*

قد لا يجد الآثم المنيب غير رجاء يقف اليها يذرف عندها دمعة هو واجد الراحة بعدها من ألم يرزح تحت عبئه . وما بك أن تحول بين باك وبين ما يبكي عليه ولكن بك أن تعرف السبب إن جهلته .

وهذا ما أراده المهندس حين وجد مع الصباح الباكر رجلاً يجثو على قبر أمه يكاد يدفن في الارض وجهه يبكي في صوت مسموع . وحسبه الفتى أخطأ فقيده . فتقدم إليه والفتاة في إثره ، ووضع يده على كتفه كأنه يريد أن يستنهضه . ورفع الرجل رأسه بعد لأي ، فرأى فتى وفتاة حجب الدمع عن عينيه فلم يعرف منهما أحداً ، ولكنه ما كاد يرفع رأسه حتى سمعها صرخة من الفتاة باسمه ثاب معها الى أمض رشده ، فنهض واقفاً ، فاذا هو يستقبل ابنته مشدوهة حائرة . ويستقبل الى جانبها فتى أوحي إليه أنه ليس إلا ابنه ، وكان مصدوقاً .

وعرف الأب أن الفتى والفتاة على هوى وحب ، فوجم ساعة مطرقاً ثم رفع رأسه بعينين اخضلتا بدمع وأراد أن يتحدث واقفاً فخذلته قدماه فجلس على القبر ومضى يقول ويبين !

ثم نهض راجعاً من حيث أتى تاركاً لهذين الاخوين ما يريان

وما علمنا أن واحداً من الثلاثة صحت له الحياة بعد هذه أو أنس بها .

إبراهيم الابياري